الوقائع الكاملة لـ «اختراع أرض إسرائيل» (*)

اسم الكتاب: "اختراع أرض إسرائيل"

المؤلف: شلومو ساند

الترجمة إلى العربية: أنطوان شلحت وأسعد زعبي

الناشر: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- مدار، ٢٠١٣

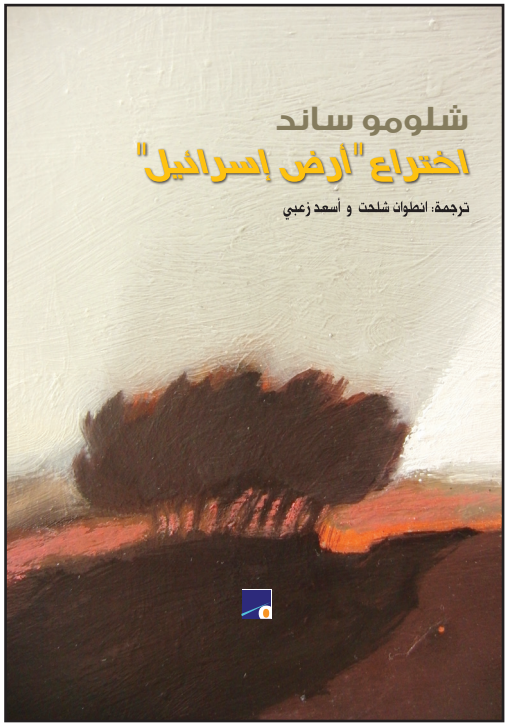

(*) يستند هذا العرض إلى فصول الكتاب وإلى التقديم الذي كتبه أنطوان شلحت.

ابتكرت الصهيونية منذ أن بدأت تشق طريقها في أوروبا العديد من المصطلحات والأفكار التي ساعدتها في ترسيخ فكرة كون فلسطين «أرض الميعاد» و«أرض إسرائيل» وبأن لليهود فيها حقوقا تاريخية عمرها ألفا عام. ولا يزال خطاب الحقوق متداولا حتى اليوم في الفكر الصهيوني، ويمكن تلخيصه باعتبار اليهود الحاليين أنفسهم الورثة الحقيقيين لليهود القدامى الذين سكنوا في فلسطين وعليه فهم الورثة الحقيقيون لها.

يتأمل ساند هذا الطرح ويتساءل ببساطة عن شكل العالم في حال تبنيه لمثل هذا الخطاب. فهل يخطر في بال أحد مثلاً أن يؤيد غداً مطالب العرب بالاستيطان في شبه الجزيرة الإيبيرية وإقامة دولة مسلمة فيها لأن آباءهم قد طردوا منها بعد محاكم التفتيش؟

يؤرخ هذا الكتاب العملية التي تم فيها تحويل مصطلح «أرض إسرائيل» من مصطلح ديني لاهوتي إلى مصطلح جيو- سياسي (From Holy Land to Homeland)، وذلك من خلال إعادة نظر جذرية في جملة من المسلمات الصهيونية الصنميّة الكاذبة عبر إخضاعها إلى محاكمة تاريخية متأنية وصارمة ومدروسة.

ومن نافل القول إن الوقائع التي يوردها ساند، شأنها شأن الاستنتاجات التي يتوصل إليها، توسّع دائرة الضوء كثيراً حول الأراجيف التي لجأت الحركة الصهيونية إليها لتدعيم تلك المسلمات من جهة، ومن جهة أخرى لتبرير مشروعها المتعلق باستعمار فلسطين وما ترتب عليه من آثار كارثية مدمرّة بالنسبة إلى سكانها الفلسطينيين الأصلانيين.

ويرى ساند بحق أن هدف الحركة الصهيونية من وراء هذه الأراجيف مجتمعة هو الاستفادة منها في الحد الأقصى ضمن سياق اختلاق قومية جديدة وشحنها بغايات استعمار فلسطين باعتبارها «وطن» أبناء هذه القومية الجديدة منذ أقدم العصور. وقد تمثل الهدف الأهم من وراء الترويج لتلك الأراجيف في الإقناع بأن هذا «الوطن» (فلسطين) يعود إلى «الشعب اليهودي» وإليه فقط، لا إلى أولئك «القلائل» (الفلسطينيون) الذين أتوا إليه بطريق الصدفة ولا تاريخ قومياً لهم، وفقاً لمزاعم الحركة الصهيونية.

وبناء على ذلك فإن حروب ذلك الشعب لاحتلال «الوطن» وبعد ذلك لـ«حمايته» من كيد الأعداء المتأصل هي حروب عادلة بالمطلق، أمّا مقاومة السكان المحليين الأصلانيين فإنها إجرامية، وتسوّغ ما ارتكب ويُرتكب بحقهم من آثام وشرور مهما تكن فظاعتها.

وينوه شلومو ساند في مستهل كتابه أن العديد من الانتقادات التي وجهت إليه بعد صدور كتابه السابق «اختراع الشعب اليهودي» اتهمته بالطعن في حق اليهود على وطنهم القديم. وما لم يخطر في بال ساند هو أن يكون هناك في بداية القرن الواحد والعشرين عديد من النقاد الذين يبررون الاستيطان الصهيوني وإقامة دولة إسرائيل من خلال ادعاءات أرض الآباء، والحقوق التاريخية، أو الأشواق القومية، والتي لا تزال تسيطر على فكر معظم القادة والمفكرين الصهاينة دون الأخذ بعين الاعتبار النتائج المدمرة لمثل هذه الأفكار على عملية اتخاذ القرار وبشكل خاص كونها حاجزاً أمام قرار الانسحاب من الأراضي الفلسطينية والتي تعتبر في تصورهم أراضي لهم فيها حقوق تاريخية ودينية لا يجدر التخلي عنها بأي شكل من الأشكال، متجاهلين في ذلك جميع الحقائق التاريخية المنافية لهذه التصورات المختلقة التي يفندها هذا الكتاب.

الصهيونية واختراع خطاب حقوق اليهود في فلسطين

ابتكرت الصهيونية منذ أن بدأت تشق طريقها في أوروبا العديد من المصطلحات والأفكار التي ساعدتها في ترسيخ فكرة كون فلسطين «أرض الميعاد» و«أرض إسرائيل» وبأن لليهود فيها حقوقا تاريخية عمرها ألفا عام. ولا يزال خطاب الحقوق متداولا حتى اليوم في الفكر الصهيوني، ويمكن تلخيصه باعتبار اليهود الحاليين أنفسهم الورثة الحقيقيين لليهود القدامى الذين سكنوا في فلسطين وعليه فهم الورثة الحقيقيون لها.

يتأمل ساند هذا الطرح ويتساءل ببساطة عن شكل العالم في حال تبنيه لمثل هذا الخطاب. فهل يخطر في بال أحد مثلاً

وفيما يتعلق بنشوء مصطلح "أرض إسرائيل» يشير ساند إلى أن اسم البلاد في التناخ كان «كنعان»، وفي فترة «الهيكل الثاني» كان المصطلح الشامل هو «أرض يهودا». ومصطلح «أرض إسرائيل» يظهر في الميشناه، لكنه ليس مطابقا لبلاد الوعد الإلهي الذي مُنح إلى إبراهيم. أما «أرض إسرائيل» كاسم ورقعة فتظهر في التلمود بصيغ مختلفة، وفي تقدير ساند فإن المصطلح ظهر بعد أن غير الرومان اسم يهودا إلى سورية - بلسطينا، وعندها وكرد على الخطوة الرومانية بدأت المحافل الرابانية والتلمودية في التشديد على مصطلح «أرض إسرائيل».

أن يؤيد غداً مطالب العرب بالاستيطان في شبه الجزيرة الإيبيرية وإقامة دولة مسلمة فيها لأن آباءهم قد طردوا منها بعد محاكم التفتيش؟ أو لماذا لا يحاول ذراري البيوريتانيين الذين اضطروا إلى ترك إنكلترا، العودة بجماهيرهم إلى أرض آبائهم من أجل إقامة ملكوت السماء فيها؟ وغير ذلك من النماذج التاريخية المشابهة للإدعاء الصهيوني. هكذا يمكننا أن نتخيل بسهولة مسيرة حماقة لتحقيق «حقوق قديمة» ستدهورنا إلى مهاوي التاريخ، وتزرع بذور الفوضى العامة بين البشرية.

وهذه هي الحال أيضا بالنسبة لمصطلح «أرض إسرائيل» والذي يعترف المؤلف بأنه كان جزءا من قاموسه على الرغم من كونه يسارياً، وكان واثقا من أنه مصطلح تناخي (أي من العهد القديم)، إلا أنه فجأة تبين له أنه لا يوجد أي ذكر لـ «أرض إسرائيل» في التناخ بعد أن دقق في مكانتها فيه وفي الأدبيات اليهودية القديمة. أما القدس (أورشليم) فإنها لا تظهر بالمرة في التوراة، في حين أن كلمة «وطن» تظهر تسع عشرة مرة في جميع أسفار التناخ ونصفها في سفر التكوين، لكن هذا المصطلح يتعلق بمسقط الرأس أو المكان الذي يدل على أصل عائلة، لا بإقليم جيو –سياسي مثلما كانت الحال لدى اليونان أو الرومان.

وليس هذا وحسب بل أيضاً لم يخرج أبطال التناخ بتاتاً للدفاع عن وطنهم كي يحظوا بالحرية أو بدافع وطنية سياسية كما تصورهم الصهيونية. ويشدّد ساند على أن النصوص التناخية تشير إلى أن الديانة «اليهودية» – نسبة إلى يهوه– لم تنم في أرض كنعان وأن نشوء التوحيد حدث خارج «أرض الميعاد».

وفيما يتعلق بنشوء مصطلح «أرض إسرائيل» يشير ساند إلى أن اسم البلاد في التناخ كان «كنعان»، وفي فترة «الهيكل الثاني» كان المصطلح الشامل هو «أرض يهودا». ومصطلح «أرض إسرائيل» يظهر في الميشناه، لكنه ليس مطابقا لبلاد الوعد الإلهي الذي مُنح إلى إبراهيم. أما «أرض إسرائيل» كاسم ورقعة فتظهر في التلمود بصيغ مختلفة، وفي تقدير ساند فإن المصطلح ظهر بعد أن غير الرومان اسم يهودا إلى سورية – بلسطينا، وعندها وكرد على الخطوة الرومانية بدأت المحافل الرابانية والتلمودية في التشديد على مصطلح «أرض إسرائيل».

ووفقا للتلمود فإن «أرض إسرائيل» هي منطقة تمتد جغرافياً من جنوب عكا إلى شمال عسقلان، ويظهر مصطلح «أرض إسرائيل» فيها كفريضة– «مِتسفاه»؛ أي أن «أرض إسرائيل» التلمودية ليست مصطلحا جيو – سياسيا، وإنما هي مصطلح ثيوقراطي يتطرّق إلى أرض مقدسة تسري على سكانها فرائض خاصة مرتبطة بالبلاد. ويلفت ساند الانتباه إلى أن قلائل فقط مستعدون لأن يقرّوا بأن "أرض إسرائيل "التي وردت في أسفار التناخ لم تشمل القدس والخليل وبيت لحم، وأن التناخ استخدم الاسم الفرعوني للمنطقة وهو «أرض كنعان».

ولدى بحث ساند في أدبيات المكابيين ومخطوطات فيلون الإسكندراني وكتب المؤرخ اليهودي يوسيفوس فيلافيوس التي تجمل معظم فترة «الهيكل الثاني»، لم يعثر فيها أيضا على أي ذكر لمصطلح «أرض إسرائيل» ولو مرة واحدة.

ويفترض ساند بأن «أرض إسرائيل»، كأحد أسماء المكان العديدة – بعضها مقبول بشكل غير قليل في التقاليد اليهودية مثل «أرض مقدسة»، «أرض كنعان»، «أرض صهيون» أو «الأرض البهية»– كان في بدايته اختراعاً مسيحيا ورابانياً، أي لاهوتيا في وقت متأخر وليس بأي حال سياسيا. وبحذر شديد يفترض أن ظهور اللقب للمرة الأولى كان في العهد الجديد، في إنجيل متى. وربما ظهر هذا المصطلح لأن أوائل المسيحيين عرفوا أنفسهم كـ «بني إسرائيل»، وليسوا كيهود، ولا يستبعد احتمال أن تكون «أرض إسرائيل» قد أدخلت إلى النص قبل ذلك بكثير.

ويشير ساند إلى أن ظهور بدايات هذه التصورات كان لدى أتباع الحركة البيوريتانية- وهي الحركة التطهّرية التي انبثقت عن البروتستانتية في بريطانيا- خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولقد بدأ البيوريتانيون ومنذ وقت طويل بقراءة التناخ على أنه كتاب تاريخ قبل أن يفكر الصهاينة اليهود في القيام بذلك. وربط هؤلاء المؤمنون المتعطشون للخلاص ذلك بولادة شعب إسرائيل في أرضه القديمة.

ولم تنشأ هذه العلاقة بسبب قلقهم الخاص على اليهود المضطهدين في أوروبا، بل في الأساس بسبب الرؤية التي تعتبر قدوم الخلاص المسيحي للعالم بأسره سيكون بعد أن يعود بنو إسرائيل إلى صهيون.

يتناول ساند المفهوم الدلالي لمصطلحي «الوطن» و«الحدود» وغيرهما من المفاهيم التي تحولت بفعل القومية لمصطلحات ذات شحنات مختلفة كليا عما عهدناه في العصور ما قبل الحديثة. وبما أن العديد من المصطلحات التي نستعملها في حياتنا اليومية قد سلبت من لغات قديمة، فمن الصعب علينا اليوم الفصل بين مضامين عقلية تابعة للماضي وحساسيات عصرية في الحاضر. ولذلك يخيم خطر المفارقة التاريخية فوق كل مصطلح إن لم ترافقه عملية تاريخية دقيقة. وعلى الأرجح فإن مصطلح "وطن» موجود في كل اللغات، رغم أنه لا يحمل دائما الشحنات القيمية ذاتها.

وفي الحالة الصهيونية أخذ المثقفون الصهاينة، مؤسسو اللغة العبرية الحديثة والذين كانت لغتهم الأم أو لغة ثقافتهم على الأرجح الروسية (و/أو اليديش)، من العهد القديم كلمة «موليدت» (وطن)، على ما يبدو في أعقاب كلمة «رودينه» الروسية والتي معناها أقرب أكثر لمكان الولادة أو لمنطقة أصل العائلة. والـ«رودينه» تشبه إلى حد كبير الـ «هيمات» الألمانية، وصدى الحنين الرومانسي (وربما الجنسي) فيها ملائم على ما يبدو للصلة الصهيونية مع وطن ميثولوجي قديم.

واستعارت الصهيونية مصطلحاتها الفكرية («أرض إسرائيل» والوطن «موليدت»، والعودة «شِيفا») وغيرها من المصطلحات الدينية من الشريعة اليهودية وشحنتها بالوطنية والقومية التي لم تكن موجودة فيها أصلا. فتحولت الأرض المقدسة التي كانت تحرم الهجرة إليها إلى وطن يجب إقامة دولة سيادية فيه. وساعد هذا التصور الأسطوري على شرعنة الاحتلال الصهيوني لفلسطين وعلى كسب تأييد العالم الغربي وبشكل خاص البروتستانتي من أجل تبرير مشروع استيطاني جديد، وقد ثبتت جدوى هذا الاختراع.

ويشير ساند إلى المكان الهامشي الذي خصصته السجالات النظرية حول الأمة والقومية، التي دارت في نهاية القرن العشرين ومع بداية القرن الواحد والعشرين، لمسألة تركيب أو هيكلة الوطن الحديث، إذ لم يحظ الحيز الإقليمي (الجغرافي)، أي «العتاد الصلب»، الذي تحقق الأمة من خلاله سيادتها الذاتية، بذات الاهتمام البحثي الذي حظيت به «البرمجية» – أي العلاقات بين الثقافة والسيادة السياسية، أو وظيفة الميثات والأساطير التاريخية في نحت الجسد القومي. لكن من الواضح أنه مثلما لا يستطيع مشروع اختلاق أمة أن يتحقق أبدا من دون جهاز سياسي، ومن دون ماض تاريخي مختلق، فإن الحيز الإقليمي أيضًا يحتاج إلى خيال جيو – فيزيائي لإقليم يكون له بمثابة نقطة ارتكاز وهدف لحنين دائم.

وقد واجه مؤيدو الفكرة الصهيونية التي بدأت تتكون في نهاية القرن الثامن عشر معضلة غير بسيطة. فبما أن التناخ كان بالنسبة إليهم منذ البداية وثيقة مُلك على فلسطين، والتي ستتحول سريعاً إلى أرض إسرائيل، فقد توجب عليهم تحويل أرض إسرائيل بأية وسيلة كانت – بجانب تحويلها إلى بلد أصل متخيل نُفي منه جميع اليهود – إلى وطن قديم كان في السابق مُلكاً لآبائهم الميثولوجيين.

ويشير ساند إلى أن ظهور بدايات هذه التصورات كان لدى أتباع الحركة البيوريتانية– وهي الحركة التطهّرية التي انبثقت عن البروتستانتية في بريطانيا– خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولقد بدأ البيوريتانيون ومنذ وقت طويل بقراءة التناخ على أنه كتاب تاريخ قبل أن يفكر الصهاينة اليهود في القيام بذلك. وربط هؤلاء المؤمنون المتعطشون للخلاص ذلك بولادة

شعب إسرائيل في أرضه القديمة.

ولم تنشأ هذه العلاقة بسبب قلقهم الخاص على اليهود المضطهدين في أوروبا، بل في الأساس بسبب الرؤية التي تعتبر قدوم الخلاص المسيحي للعالم بأسره سيكون بعد أن يعود بنو إسرائيل إلى صهيون. وكجزء من هذه الصفقة طويلة الأمد يجب على اليهود أن يتنصروا، وفقط من بعد ذلك سيشهد العالم عودة يسوع من جديد. ويؤكد المؤلف في ضوء ذلك أن هؤلاء الذين يُطلق عليهم اسم «الصهاينة الجدد»، لا اليهود، هم الذين اخترعوا «أرض إسرائيل» كمصطلح جيو- سياسي معاصر. وحتى يتم تحقيق هذه الرؤية اقتنع العديد من البيوريتانيين أبناء القرن السابع عشر بأن عليهم من أجل تعجيل الخلاص السماح لليهود بالعودة لإنكلترا التي طردوا منها بضراوة قبل أكثر من ثلاثمئة عام، إذ كان التشتت اليهودي وفق اعتقادهم شرطا مسبقا لجمعهم اللاحق في أرض صهيون.

الدور الانكليزي

ورافقت هذه العملية عملية فكرية وثقافية شاملة في إنكلترا ساهمت في الترويج لأبطال التناخ وحروبه وإضفاء هالة من البطولة والرومانسية على العبريين القدماء واليهود المعاصرين. وذلك من أجل التمهيد لعودة اليهود لأرض الميعاد وتحقيق وعد المسيح وجلب الخلاص على العالم. ولا يتجاهل المؤلف الرغبات الاستعمارية للإمبراطورية الكبرى في الشرق، وتجنيدها شتى الوسائل لتحقيق مطامعها التي قد تضفي الشرعية على وجودها في الشرق.

ويشير ساند إلى أن تدفق آلاف اللاجئين اليهود على إنكلترا، وأوروبا الغربية، والولايات المتحدة، هروبا من المجازر التي ارتكبت في حقهم في مناطق الإمبراطورية الروسية (ورومانيا)، أثار القلق في أوساط المؤسسات اليهودية المختلفة في أوروبا الوسطى والغربية. وأدى الخوف من تنامي العداء للسامية نتيجة مجيء اليهود «الشرقيين» إلى البحث عن طرق من أجل المساعدة، و/ أو التخلص من المهاجرين الـ «أجانب».

ولئن قام رؤساء الطائفة اليهودية في ألمانيا بإرسال اليهود الذي لجأوا إليها من شرق أوروبا بكل وسيلة ممكنة نحو ميناء هامبورغ من أجل أن يواصلوا طريقهم مباشرة إلى الولايات المتحدة، فإن أثرياء الجاليات اليهودية في فرنسا وبريطانيا بحثوا عن طرق أخرى من أجل تخفيف ضغط تدفق اللاجئين. فالبارون موريس دي هيرش على سبيل المثال، تجند لهذه المهمة وتبرع بإنشاء مستعمرات لهم في الأرجنتين. أما البارون إدموند دي روتشيلد فقد قام بالشيء نفسه في فلسطين. وفي كلتا الحالتين، تعثر المشروع الاستعماري، الذي لم يكن قومياً قطّ، وتطلب ضخاً متكرراً للأموال من أجل الحفاظ عليه.

دليل آخر ومهم يورده الكاتب لتوضيح حقيقة الموقف الانكليزي هو موقف اللورد بلفور من تدفق اللاجئين اليهود إلى لندن، فبلفور الذي يعتبر اليوم بطلا قوميا في إسرائيل ومحببا على قلوب الصهاينة كان في الواقع معادياً لوجودهم في دولته. وعندما طرح مشروع أوغندا (١٩٠٣- ١٩٠٥) كان اللورد آرثر جيمس بلفور رئيس الحكومة الجديد. وقد دعم المشروع «شبه الصهيوني» الذي اقترحه تشمبرلين في جملة أمور، لأنه لاءم نيته سن قانون صارم ضد هجرة الأجانب. وبلفور، الذي نقش اسمه في تاريخ الصهيونية كأكبر المحسنين مع «الشعب اليهودي» في العصر الحديث، بدأ علاقته مع هذا «الشعب» أو «العرق» وفق تعبيره، من خلال صراع سياسي هدف إلى منع اليهود المُضطَهدين من أن يجدوا ملجأ آمنا في وطنه.

وقد ادعى اللورد بلفور خلال نقاش برلماني في العام ١٩٠٥ بأن اليهود المهاجرين يتزوجون فيما بينهم فقط وليسوا على استعداد لأن يندمجوا بجد في الأمة البريطانية. وبالتالي هناك مبرر أخلاقي مطلق لبريطانيا في منع دخولهم إلى حدودها. ولكي يثبت للعالم أن القرار ضد الأجانب ليس معادياً للإنسانية في أساسه، أكد بلفور في خطابه على مشروع أوغندا قائلاً: عُرضت على المهاجرين أرض خصبة وواسعة في المستعمرات، وما من سبب كي يشتكوا.

ويعتبر ساند أنه ليس من قبيل المبالغة الادعاء بأن التشريع البلفوري المتعلق بالحد من هجرة الأجانب إلى إنكلترا في العام ١٩٠٥ ، إلى جانب تشريع مماثل له في العام ١٩٢٤ في الولايات المتحدة والذي زاد من صعوبة الهجرة إليها، قد ساهما في إقامة دولة إسرائيل بشكل لا يقل عن التصريح البلفوري في العام ١٩١٧ وربما أكثر من ذلك. إن هذين القرارين المعاديين للهجرة ساهما في نشوء الظروف التاريخية لبداية توجيه مسار اليهود نحو الشرق الأوسط.

وفي أواخر العام ١٩١٧ ، وفي مرحلة حاسمة من الحرب العالمية الأولى، تهيأت في الواقع الظروف الملائمة للحمة بين الأيديولوجيا والسياسة، وفي ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ أرسلت وزارة الخارجية البريطانية إلى مكتب اللورد ليونيل فولتير روتشيلد ما صار يسمى بوعد بلفور.

وقد كان كل من اللورد لويد جورج، واللورد آرثر بلفور، واللورد ألفرد ميلنير، واللورد روبرت سيسيل، والسير ونستون تشرتشل وغيرهم من القادة البريطانيين على ثقة في العام ١٩١٧ من أن توطين اليهود في فلسطين سيضمن للبريطانيين قبضة استعمارية مؤكدة إلى الأبد وربما أبعد من ذلك في حال ثبات صدق نبوءات الإنجيليين. ولو تعارض تأسيس بيت يهودي في فلسطين مع مصالح بريطانيا، لكان هؤلاء من أوائل المعارضين لهذه الفكرة.

وقد كان كل من اللورد لويد جورج، واللورد آرثر بلفور، واللورد ألفرد ميلنير، واللورد روبرت سيسيل، والسير ونستون تشرتشل وغيرهم من القادة البريطانيين على ثقة في العام ١٩١٧ من أن توطين اليهود في فلسطين سيضمن للبريطانيين قبضة استعمارية مؤكدة إلى الأبد وربما أبعد من ذلك في حال ثبات صدق نبوءات الإنجيليين. ولو تعارض تأسيس بيت يهودي في فلسطين مع مصالح بريطانيا، لكان هؤلاء من أوائل المعارضين لهذه الفكرة.

لم تأبه بريطانيا كثيراً بالموقف العربي في تلك الفترة، فالوعد الذي منحه هنري مكماهون، المندوب السامي في مصر، إلى الحسين بن علي، شريف مكة، من أجل تجنيده للحرب ضد العثمانيين لم يكن إلا مجرد حبر على ورق. إذ أن بريطانيا لم تهتم بالمرة لنقض وعودها للعرب. وعلى أية حال فإنها لم تفكر جدياً في تنفيذها لأنها استخفت بشكل تام ببراعم تطلعاتهم القومية. ففي ١٦ أيار١٩١٦ ، عندما التقى مارك سايكس مندوب وزارة الخارجية البريطانية وشارل فرنسوا جورج بيكو مندوب وزارة الخارجية الفرنسية، وتوصلا إلى تفاهم سري حول تقسيم الغنيمة الإقليمية، لم يتم التشاور مع قادة المنطقة أو حتى مع قادة القوى الكبرى في تلك الفترة، وظل الاتفاق سرياً حتى كشفه البلاشفة عندما قاموا بثورتهم في روسيا.

ويعتبر ساند فترة ما بين الحربين العالمتين نقطة التحول المركزية التي قامت فيها السياسة الغربية وبشكل خاص البريطانية إلى جانب الصهيونية بلعب الدور الرئيس لتحقيق المطامع الاستعمارية لبريطانيا والآمال القومية للصهيونية. وبعد أن تم تجهيز الأرضية الفكرية والدبلوماسية لهذا الطرح لم يكن من الغريب أن يقبل العالم مساندة المشروع الصهيوني.

عين ديفيد لويد جورج في كانون الأول ١٩١٦ رئيساً لحكومة بريطانيا، في حين تم تعيين ساعده الأيمن آرثر بلفور وزيراً للخارجية. وكان كلاهما غير راضيين عن إتفاقية سايكس – بيكو التي أبرمت مع فرنسا.وكان السبب لذلك مضاعفاً ومندمجاً، وينطوي على أمور مبتذلة وأخرى متعلقة بالمجد التاريخي.

وأولاً وقبل أي شيء سعى البريطانيون إلى توسيع منطقة الأمن العسكري في قناة السويس من خلال احتلال فلسطين بصورة واقعية، وكانوا بصدد تنفيذ ذلك. واعتقد البريطانيون بأن الطريق الذي يربط بين البحر المتوسط والخليج العربي يجب أن يكون تحت سيطرة مندوبي جلالته. ولم تكن لهم أي نية بتقاسم الأرض المقدسة مع «الملحدين» الفرنسيين المشكوك في أمرهم.

وثانياً، وبعد كل شيء، فإنها أرض التناخ التي طرد منها "فرسان يسوع» الأوروبيون في العام ١٢٤٤ من قبل المسلمين البرابرة، والآن سنحت الفرصة لعودة أبناء أوروبا المتحضرين إليها. لم تكن الأرض المقدسة مجرد مستعمرة كأوغندا أو سيلان. فقد كانت مسقط رأس الديانة المسيحية الأصلية، وهكذا مهدت الطريق أمام اللوردات البروتستانت في بريطانيا لإدارة شؤونها من خلال الوكالة الصهيونية.

ويلخص ساند هذه الحقبة طويلة الأمد في العلاقات بين انكلترا والصهيونية بثلاث نقاط رئيسة: ١) الحنين المسياني الإنجيلي إلى أرض الميعاد والمرتبط بشكل وثيق بالأهداف الاستعمارية لإنكلترا، ٢) أزمة المهاجرين اليهود في أوروبا، ٣) ردة الفعل القومية التي بدأت تظهر في وسط اليهود من خلال الصهيونية. وقد أدت مجتمعة إلى تمهيد الطريق لاحتلال فلسطين واستعمارها.

ويشير ساند إلى أنه على الرغم من صدور وعد بلفور لم يتدفق اليهود بالآلاف على فلسطين بعد صدور وعد بلفور، إذ لم ينظر معظم يهود العالم خلال النصف الأول من القرن العشرين (التقليديون– الحريديم، الليبراليون – الإصلاحيون، البوند – الاشتراكيون الديمقراطيون، الاشتراكيون واللاسلطويون) إلى فلسطين باعتبارها بلداً لهم. ونظراً إلى أنهم لم يسعوا في

كل جيل للعودة والتمسك» بوطنهم القديم» فإنهم لم يروا أن من الضروري العودة إليها حتى عندما مُنحت لهم على طبق الفضة الاستعماري البروتستانتي. لقد كانت المآسي القاسية والرهيبة التي حلت باليهود، وإغلاق حدود "العالم المتنوّر» أمامهم، هما اللذان أديّا في نهاية المطاف إلى إقامة دولة إسرائيل.

رجال الين اليهود ضد الصهيونية

يؤرخ ساند في فصله الأخير لمعارضة رجال الدين اليهود للصهيونية، فرغم محاولة الصهيونية اختلاق تاريخ مغاير ومختلف لليهودية إلا أن التمعن في موقف رجال الدين اليهود يشير بوضوح إلى أن علاقتهم بالأرض المقدسة كانت تستند في الأساس إلى القسوم (العهود) التلمودية الثلاثة والتي تحذر من هجرة مُدبرة إلى الأرض المقدسة، وحتى ولادة الصهيونية في نهاية القرن التاسع عشر، كان عدد قليل فقط من اليهود قد تخيل أن الأراضي المقدسة كانت، أو قد تكون، إقليما قوميا لليهود.

وعلى سبيل المثال فقد تجند كبار الحاخامين في أوروبا الشرقية خلال الفترة ما بين المؤتمر الصهيوني الأول في ١٨٩٧وبين العام ١٩٠٠ ، موعد انعقاد المؤتمر الرابع، لمقاومة الرؤية التي تروم تحويل الأراضي المقدسة إلى وطن يتجمع فيه كل اليهود ويقيمون فيه وطنا شبه يهودي.

وقد كان من الجلي للحاخامين أنهم يقفون إزاء ظاهرة تاريخية جديدة لا سابقة لها في العالم اليهودي، فقد كانت فكرة القومية والدولة وغيرها من الأفكار بالنسبة لهم بدعا مضللة تؤدي إلى الهلاك. ونجحت الصهيونية، بإسناد مريع من التاريخ، في هزم الديانة اليهودية، حتى أن قطاعات واسعة من اليهودية، وخصوصا تلك التي نجت من الإبادة، أذعنت في أعقاب الحرب العالمية الثانية لحُكم المبدأ المنتصر؛ أي دولة تسمى يهودية تقوم في الأراضي المقدسة التي أضحت وطنا قوميا.

وباستثناء قطاع صغير جدا ومهلهل كان موجودا في القدس، وكذلك المجموعات الحسيدية الكبرى في نيويورك، أصبحت غالبية المؤمنين اليهود، بدرجات متفاوتة، أتباعا ومريدين للقومية الجديدة، بل أصبح بعضهم داعما حتى لقومية عدوانية شرسة بوجه خاص. لدى هؤلاء، حصرا، كما في أوساط اليمين العلماني المتطرف، حينما بدأ سيد العالم بإظهار علامات الترهل والإنهاك، والاحتضار ربما، أصبح الإنسان، أي القومية، سيد الأرض وصاحب القدرة الكليّة.

يخصص المؤلف خاتمة كتابه لإطلاق دعوة من أجل أن تثبت جامعة تل أبيب حيث يعمل عند مدخلها لوحة تذكارية لمهجري الشيخ مونّس، القرية الوادعة التي اختفت كما لو أنها لم تكن، مشيراً إلى أنه يحرص على تعليم طلابه، في مستهل أي مسار تعليمي، أن أية ذاكرة جماعية هي بهذا القدر أو ذاك نتاج هندسة ثقافية تعديلية تخضع، على الدوام تقريباً، لاحتياجات الحاضر ومزاجه السائد، وإلى أن من عادته التأكيد، بوجه خاص، أنه لدى الحديث عن تاريخ الأمم، فليس الماضي هو الذي يخلق الحاضر، بل إن "الحاضر القومي» هو الذي يعجن الماضي ويصوغه لنفسه، بصورة حرة تماماً، ومع ذلك يشمل هذا الماضي دائما ثغرات كبيرة جداً من النسيان، وليس بمقدور المؤرخين ومهندسي الذاكرة إعادة بنائه كما كان.